سعادة
د. فاديا كيوان

المديرة العامة لمنظمة المرأة العربية، كما أنها مديرة مرصد الوظيفة العامة والحكم الرشيد في جامعة القديس يوسف؛ تحمل دكتوراه دولة في العلوم السياسية من جامعة باريس الأولى – السوربون، وهي أستاذة بمعهد العلوم السياسية ومديرة فخرية للمعهد. وقد أنجزت العديد من الأبحاث المنشورة في مجالات المجتمع المدني.

سعادة د. فاديا كيوان

أودّ بداية توجيه الشكر إلى سلطات الإمارات العربية المتحدة على دعوتي للمشاركة في هذا الحدث الثقافي الهام جداً للإنسانية جمعاء، وتوجيه التهنئة –أيضاً- على اختيار هذا الموضوع/ الإشكالية وفتح نقاش صريح وشجاع حول أوجه عدة في مسألة الأخوة الإنسانية؛ لا بل حول علاقة الأديان السماوية بالأخوة الإنسانية.

تلفت الدراسات الأنثروبولوجية إلى ظهور وعي حدسي لدى المجتمعات البشرية الأولى حول وجود خالق للكون وللبشر، وجاءت تجليات هذا الحدس تبني صوراً متنوعة لخالق الكون وخالق البشر، فجسّده الحدس بداية في صورة قوة طبيعية متحكمة بمصير الأرض والبشر وسائر الكائنات وبالكون بكامله.

وتشير العديد من تلك الدراسات إلى وجود علاقة ميكانيكية كانت تشكل الرابط/العصب فيما بين أفراد كل جماعة من البشر. وكان يشتد العصب بين أفراد كل جماعة مع اشتداد الصعاب والتحديات التي كانت كل جماعة تواجهها في سعيها إلى إيجاد سُبل العيش والبقاء.

فهناك شعوران كانا يتملكان من الجماعات البشرية الأولى: شعور التضامن الميكانيكي بين أفراد كل جماعة وشعور بالعداء تجاه الجماعات الأخرى. وهذان الشعوران كانا ينتجان تماهي للأفراد في جماعتهم والعدوانية تجاه الآخرين.

حتى كبار المفكرين المعاصرين أشاروا إلى ما أسموه: "الشيوعية البدائية" وأذكر من بينهم "جان جاك روسو" و"كارل ماركس". ومعلوم أن "روسو" رسم صورة الإنسان الأول؛ الطيب بالفطرة والذي يفسده العيش في ظل شريعة الغاب، وروسو وضع تصوراً للأسباب التي دعت البشر إلى الانتظام تحت سلطة مدنية للخروج من حال شريعة الغاب والحصول على الأمان .

أما ماركس، فقد اعتبر أن الخروج من الشيوعية البدائية حصل عندما وضع الأفراد الأكثر قوة من سواهم يدهم على الأرض وعلى الممتلكات وعلى البشر واستملكوهم. فإذا بظاهرة التملك الخاص تنتج الصراعات والعدائية.

ونعلم أن "ماركس" اعتبر أنه في إلغاء التملك الخاص طريقاً للعودة إلى الأخوة الإنسانية. ونعلم أيضاً أن هذه "اليوتوبيا الماركسية" اصطدمت بالواقع الذي بيّن جنوح البشر إلى تملك السلطة وسعيهم إلى الإبقاء على سيطرة من كان في السلطة على سائر البشر. وهذه كانت بعض أسباب انهيار الأنظمة الاشتراكية والشيوعية في ثمانينات القرن الماضي.

المفهوم المادي المحض للكون وللعلاقات بين البشر سقط سقوطاً مدوياً وعادت تعلو المنظومات الفكرية التي سلطت الضوء على المشاعر والقيم التي تربط بين البشر. وقد أشار الفيلسوف "شوبنهاور Schopenhauer " إلى شعور "التعاطف compassion " الذي يعلو كل الفروقات بين البشر ويشدّهم إلى بعضهم. وذهب الفيلسوف "جان بول سارتر" إلى حّد تقديس "الذات/الأنا Ego " على أنه قادر على تجاوز نفسه وإنتاج قيم تبني له علاقة أمان مع ذوات الآخرين. لكن نعلم أن الخيار الذي طبع الفكر الوجودي عند "سارتر" والذي كان الإلحاد الوجودي، لم يسمح "لسارتر" ببناء علاقة أمان ثابتة ومستقرة للذات البشرية بل إنه اعتبر الذات البشرية في حالة صراع أو كباش دائم مع ذوات الآخرين وقد اشتهر في هذا السياق قوله: "بأن الجحيم هو الآخرين".

في مقابل الوجودية الإلحادية ظهرت مدارس فكرية وجودية هي الأخرى لكنها رأت في قدرة

الـذات علـى تجاوز نفسـها طاقـة للتلاقـي مـع ذوات الآخريـن وحـول بنـاء منظومـة قيـم إنسـانية ونذكـر مـن هـذه المـدارس: التيـار الوجـودي المسـيحي مـع ايمانويـل مونيـه Emmanuel Mounier، والتيـار الشـخصاني humanistic personalism عنـد تيـار دو شـاردان Teillard de Chardin، هـذه الاتجاهـات الفكريـة المتقابلـة والمتعارضـة انحصـر تأثيرهـا فـي وسـط المثقفيـن لكنهـا لـم تتسـع تأثيرا لتشمل العامة ولتطبع سلوك المجتمعات بشكل واسع.

وحدهـا الأديـان السـماوية فـي مرحلـة أولـى، اسـتطاعت إحـداث نقلـة نوعيـة فـي حيـاة البشـر . فقـد أرشـد الأنبيـاء والرسـل البشـر إلـى الـرب تعالـى خالـق الكـون وخالـق البشـر، واسـتكملت هـذه الرسـالة عبـر إنجيـل المسـيح. ونحـن العـرب نعرّفـه بيسـوع الناصـري ناشـر الدعـوة إلـى المحبـة والأخـوة بيـن البشـر والـذي يقـال عنـه أنـه ربـط الأرض بالسـماء. وكذلـك رسـالة النبـي محمـد، صلـى اللـه عليـه وسّـلم، وقـد أنـزل عليـه الـرب كتابـه المقـدس، القـرآن الكريـم، ليؤكـد علاقـة البشـر بـرب العالميـن وليدعوهم إلى الرحمة وإلى الأخوة، إلى البر والإحسان، والصدقة والذكاة، والشفقة...

وفيمـا نتجـه نحـن كعـرب إلـى التغنـي بـأن الـرب تعالـي قـد اختارنـا كأمـة عربيـة لينـزل علينـا كتابـه وبلغتنـا العربيـة، يعـود إلـى ذاكرتـي القـول المأثـور للنبـي محمـد ، صلـى اللـهُ عليـهِ وسـلـم، "رُبَ أخ لـك لـم تلـده أمـك" وقولـه: "لا فـرق عنـد اللـه بيـن عربـي و لا أعجمـي و لا أبيـض ولا أسـود إلا بالتقـوى"، وقولـه تعالـى: "يـا أَيُّهَـا النَّـاسُ إِنَّـا خَلَقْنَاكُـمْ مِـنْ ذَكَـرٍ وَأُنْثَـى وَجَعَلْنَاكُـمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِـلَ لِتَعَارَفُـوا إِنَّ أَكْرَمَكُـمْ عِنْـدَ اللَّـهِ أَتْقَاكُـمْ"، وتكتسـب هـذه الأقـوال قيمـة عظمـى عندمـا نتذكـر بـأن المجتمعـات العربيـة كانـت منقسـمة إلـى قبائـل تتصـارع باسـتمرار . وهـذه الأقـوال تشـير بوضـوح إلـى الأخـوة، خـارج إطـار عصـب الرحـم والـذي تحـدث عنـه ابـن خلـدون، أو العصـب العشـائري أو القبلـي والـذي استرسـلت فـي وصفـه الدراسـات الأنثروبولوجيـة؛ والقـول الأخيـر يشـير بوضـوح إلـى البعد الإنساني الأكبر للرسالة الإسلامية .

بعـد هـذه اللمحـة السـريعة إلـى البدايـات والاتجاهـات الفكريـة، مـن واجبنـا التوقـف عنـد واقـع حيـاة البشـر فـي زمننـا الحاضـر. وفـي هـذا السـياق ؛ فإننـا نرصـد أربعـة منطلقـات معاصـرة للأخـوة الإنسانية :

1) المنطلق الحدسي : وهو مجبول بطبيعتنا الإنسانية؛ وهو يرافقنا منذ وجود البشر على هذه الأرض . وهذا المنطلق الحدسي يفسّر شعورنا العفوي بالتعاطف مع الآخرين، مع إقرارنا بأن التعاطف يقوي ويضعف بحسب اعتبارات نفسية عدة، منها: صلة القربى، ومن أقواها عصب الرحم ، ومنها الشبه والتماثل والتماهي اللاشعوري .

ومنها ما هو مرتبط بتصورات خاصة تجول في وعي كل إنسان وحتى في لا وعيه؛ فتتجلى: (حبًّا ومحبة، وشفقة، وتعاطفا، وأخوة، وتضامنا)، وغيرها من المشاعر الإنسانية النبيلة. لكن علينا الإقرار بعشواءيتها وتقلبها طالما بقيت متغلغلة في (لا وعي) كل إنسان، ومتقلبة بفعل مزاجه وأحواله النفسية.

2) المنطلق الديني: في بعده الأخلاقي، وهنا؛ تتجلى أهمية الأديان السماوية الثلاث: (اليهودية، والمسيحية، والإسلام). وبالطبع علينا أن نميّز نحن العرب، بين اليهودية كدين والصهيونية كعقيدة سياسية عنصرية لطالما دعت إلى نصب العداء لنا وإلى مواصلة احتلال أرضنا، ودعت وتدعو إلى التقوقع وإلى بناء الجدران.

والمسيحية في صميمها دين المحبة كما دعى إليها السيد المسيح، ودين الإحسان والأخوة. وتشكل سيرة السيد المسيح، يسوع الناصري، قدوة في هذا المجال.

والإسلام دين الرحمة والتكافل بين البشر وقد دعى إلى ذلك النبي محمد، ﷺ، خاتمة الأنبياء .

وقد طبعت الديانات السماوية بشكل واسع حياة المجتمعات البشرية لأن كل من هذه الديانات انتظم في منظومات قيميه كانت وما زلت تنقل إلى الناس أهدافاً أخلاقية وتضع ضوابط للسلوكيات البشرية لتبقى مهتدية إلى الله تعالى ولتذكر بشكل دائم أن هناك دنيا وهناك آخرة وأننا خلق الله ومؤتمنون على الأرض وعلى البشرية وعلى كل الكائنات.

3) المنطلق المدني: وهو مرتبط مباشرة بالتشريعات والقوانين الوضعية التي أرست عليها

سائر المجتمعات المعاصرة قواعد حياتها المشتركة وحاولت أن تجسّد من خلالها القيم الإنسانية التي توثّق العُرى بين الناس وتؤسس للأمان والسلام.

ولا يخفى على أحد أن المنظومة الحقوقية المعاصرة والتي تتجسد بالشرعة العالمية لحقوق الإنسان متأثرة جدًّا بالأخلاقيات الدينية؛ وإن هي بدت مستقلة عنها.

وإشهار إنسانيتنا كبشر لا يتعارض إطلاقاً مع إيماننا الديني؛ بل يبدو أنه ينزّه الإيمان بالقيم الإنسانية عن كل علاقة بالسلطة أو السلطان.

وعلينا أن نقّر بأن الديانات السماوية لم تنحصر في الرسالة التي أدلى بها المسيح واقتدى بها ودعانا إلى اتّباعه في دين المحبة، ولا في الكتاب المقدس وكلمة الرب تعالى والمُنزل على النبي، محمد ﷺ؛ بل إن هذه الديانات سلكت مسارات تاريخية، وتداخلت مع نظم اجتماعية وسياسية، واختلطت أكثر من مرة وفي أكثر من مكان بالسلطة؛ فتحولت أحياناً إلى أداة لإعطاء الشرعية إلى السلطة بدل أن تكون مرشداً لها وهداية للحكام والمحكومين على السواء.

أمام ارتباط تاريخ الديانات السماوية بالحكم السياسي، تفلتت القيم الأخلاقية من النظم وسلكت طريقها إلى بناء أخلاقيات إنسانية مستقلة تنشد الأخوة والسلام.

لكن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ليس لديه ذراع تنفيذية إذا لم يعتمد طريق الاتفاقيات الدولية التي تمر عبر الممر الإلزامي للدول وللحكومات وللسياسة.

4) منطلق التحديات المستقبلية المشتركة: وهو -بدون شك- ذو قيمة كبرى بالنظر إلى جسامة الأضرار التي حلّت بالأرض وبالبشرية ونذكر الصراعات المسلحة والحروب التي تفتك بالمدنيين وجلّهم من النساء والفتيات، ويذكر –أيضا- التغيير المناخي والكوارث الطبيعية وسواها .

الخلاصة :

الأخوة الإنسانية حدسٌ ودينٌ وبناءٌ مدنيٌّ ومواجهة مشتركة للتحديات؛ إذ أن هذه المنطلقات الأربعة تدعو إلى تعزيز الروابط بين البشر وفي ذلك إقرار بمبادئ لا مفر منها:

1- إقرار بالتنوع الثقافي بين البشر؛ أفرادا وجماعات، واحترام للتنوع والاختلاف.

2- التخلي عن الصور النمطية للآخر؛ أكان من دين آخر، أو عرق آخر، أو قومية أخرى، أو من طبقة اجتماعية أخرى... أكان رجلاً أم امرأة، واعتبار الناس أخوة فوق كل الاعتبارات يستحقون الاحترام والمحبة. وإقرار حرية الضمير والحريات الشخصية لكل فرد راشد.

3- البحث عن الأمان هو حاجة لبني البشر أجمعين وهو مسؤوليتهم في نفس الوقت.

4- السلام المبني على العدالة وحده يوّفر الأمان للبشر، وبناء السلام يجب أن يسترشد بقيم حقوق الإنسان وأدواتها القانونية كافة.

5- مصير الأرض هو مسؤولية مشتركة لبني البشر. وهناك تحديات خطيرة تهدد الأرض وسائر الكائنات، ولا نستطيع مواجهتها إلا بالتضامن والتعاضد بين البشر وبين الأمم.

في زمننا الحاضر هناك اتجاهان يسلكهما الناس والمجتمعات:

- بناء الجدران أو بناء الجسور.

- أما بناء الجدران؛ فيسير عكس التاريخ وعكس مصالح الناس ويؤجج الصراعات وينتج الحروب.

- وأما بناء الجسور؛ فهو الطريق الأسلم إلى الاستقرار والأمان وبناء السلام.

فهل ستساهم الأديان السماوية في بناء الجسور فتساهم في إنقاذ البشرية وإنقاذ الأرض نفسها؟

فاتني التحدث عن الفيلسوف الألماني "إيمانويل كانت" والذي أسس السلم العالمي على قاعدة العقلانية العملية/ التطبيقية/ العقل العملي. لكن فكر "كنط" ليس غريباً عن الثقافة الدينية لكنه حاول الابتعاد عن الدين عندما يكون أداة للسلطة، وأن يؤسس لما وجد فيه طريق السلم العالمي؛ وهو رابط الإنسانية العالمي.

نعود فنكرر تحيتنا إلى المنظمين واقتناعنا بأن هذه المبادرة المباركة تعكس يقظة للوعي الإنساني؛ فلعّل هذه اليقظة تساهم في إنقاذ الإنسانية وإنقاذ الأرض من المصير القاتم الذي يهددهما.

والسلام عليكم.